بحوثات فى الأدب الفرنسى الحديث

تطور الحركة الأدبية

فى فرنسا الحديثة[1]

عبادة الذات

موريس باريس M. BARRÈS

١٨٦٢ — ١٩٢٣

للأستاذ خليل هنداوى

يقول « بورجيه » فى مقدمته لرواية (التلميذ) إن الإنسان أصبح اليوم « عدمياً لطيفاً » وقد استحال آلة فساد ناعمة الملمس ، ويوشك أن يكون كل منا هذا الإنسان . وهذه الآلة قد خلقها شك « ريتان » ، ولكن شك « ريتان » لم يكن شكاً لئيماً ولا متشائماً . وإنما كان شك « ستندال » و « نيتشه » هو الشك الأكثر طغياناً . على أن تأثير « ستندال » لم يبلغ أشده إلا فى مطلع عام ١٨٨٠ ، وتين وبورجيه ومن يتبعهما من الأنصار يجدون فيه قدرته على التحليل النفسي ، ويتذهلون بهذه العاطفة الذاتية التى تهيمن على تفكيره . « فالعاقل عنده ليس إلا من يعمل كمثل عمله ، يقتش فى هذه الحياة عن لذة عقلية صافية » ولم يعط ستندال مذهبه تحليلاً فلسفياً ولذلك لبث تأثيره ضيقاً ، بعكس نيتشه الذى أعطى مذهبه قوة وتأثيراً . فنيتشة يتسامى بقوة ويهاجم شريعة العبيد التى أخذت بعد انتشار المسيحية تستعبد الناس . فالمحبة والمساواة والأخوة كلمات جبن وأوهام باطلة تجرب باطلاً أن تحتال على أنظمة الحياة وتتلاعب بها . ونظام مذهبه المقاتلة وسحق الضعيف وظفر القوى الذى يستحيل بعد خروجه من المعركة إنساناً كاملاً وسيداً . يقول زرادشت : « لقد مات الإله — الإله المسيحى . إنى أعلمكم الإنسان الكامل ، الإنسان هو شىء يجب أن يفوق نفسه » وقد ذاع هذا الإنسان الكامل فى الطبقات المثقفة خلال سنة ١٩٠٠ وفى هذا التاريخ نقلت آثاره وترجمت . وموريس باريس — فى رواياته الأولى — حاول أن يكسو هذه الذاتية الخارقة رداء فنياً ، فكتب عدة روايات وأعطاها عنوان « مقالات فى عبادة الذات » يتخللها تحليل بعيد يقذف بالنفس إلى عالم العزلة « وإنما يجب أن نحس أكثر ما يمكن عند ما نحلل أكثر ما يمكن » قد يكون هذا ، ولكن ينبغى عبادته ، لأنه هو الذى يمنحنا معرفة أنفسنا معرفة صحيحة ، ويجعلنا نعرف « ذاتاً » أغنى معنى وأكثر تنوعاً وأكثر تأثيراً من ذات منظمة مأمورة . ألا فلنقدس اختلاط قوى النفس ، فهذه هي اللعبة ، أو معرفة هذه اللعبة التى هى ملح الحياة ، أو على الأقل التمرين البسيط للعقل الذى ليس بخداع

وفى هذا كله شك ؛ وإن ذات « باريس » كما يقول أناطول فرانس مزيج من اضطراب وحيرة واختلاط . وإن من العمل الظافر العمل على احتوائها . إن تهكماً دائماً يحيط بها ويلتهمها . على أن فى عبادة الذات شيئاً آخر ...

وقد يخاطب « باريس » فئة مثقفة تائهة فى الثقافة الإنسانية ، ويجد أن تحليل (الذات) المصنوعة فى العزلة البعيدة عن الكتب إنما هو راحته فى هذا التيه : « إن قوة العقل والإحساس تمت وحدها بهؤلاء الذين يعيشون باتصال صادق مع أنفسهم ، وهذا هو مذهب الشعراء والمتصوفين . وهذا وحده يستطيع أن يلقينا خارج دائرة الشك ، ويقودنا إلى مثل أعلى . إننا بالانطلاق من هذه الذات الحالية نصبح رجالاً سأئمين هذا المجتمع ... رجالاً لما يتكونوا ! » وقد تكون هذه الذات شديدة الاختلاف عن الإنسان الكامل (لنيتشه) الذى لا نظام له إلا الكمال المتكبر الأنانى ؛ على أن امتحان الذات ينبغى أن يرافقه شىء من الامتحان والبلاء . وذواتنا محدودة بأشياء وراثية . ومعرفة الذات تنتهى دائماً بأن تخلق لنفسها فضيلة ومراجعات جديدة ... وقد جهد (باريس) عند ما تطور أن تكون هذه الفضيلة خلال آثاره الشكوكية ، وفى هذه الآثار ما يرفع من الشك إلى الإيمان ومن التحليل إلى التأليف ؛ والتحليل ليس فى كل صورة مبعثاً للكسل ؛ هو ينقصه جهد يُقاد إما بمنطق مدرسى جاف ، أو بمنطق أسمى لشجرة تتحرى النور وتذهب إلى غايتها الباطنية « إننى لن أذهب باستقامة إلى الحقيقة كالسهم يريد هدفه . فى أكثر الأحيان يخطئ

(١) عن الأستاذ « دانيال مورنى »

السهم المرمى . ولكن تعليل الذات بأناة ويقين يقود إلى هذه النتيجة حيث — الذات — مهما كانت مختلفة ودقيقة فهى ليست بمختلفة ولا بدقيقة إلا لأنها ليست إلا مظهراً . « الذات — خاضعة للتعليل — بقليل من الحد تفنى ولا يتبقى إلا المجتمع الذى هى منه نتيجة ثانية . وبرغم الهوان والتصاغر ، فإن فكرتى التى تعاظمت من قبل لكونها حرة تصل إلى أن تعلن وتثبت اتصالها بهذه الأرض وبهؤلاء الموتى الذين — قبيل ولادتى — قد سيطروا عليها فى أشكالها وألوانها

المجتمع خصم للفرد

الفلاسفة والمؤرخون والنقّاد

إن خير المؤلفين — فى الفئة الواقعية — الناشدة للحقيقة لم يكونوا ذوى نزعة فردية . ولم تقدهم دراساتهم إلى نتائج كنتائج نيتشه ، فالمجتمعات عندهم لا يقودها إلى الأمام رؤساء ولا رجال عبقرية ؛ ولكن المجتمعات تصنع نفسها بنفسها وتذود عن نفسها بنفسها ، لا بالعقل وحده لأنه قد يكون خاطئاً ، ولا بالإرادة وقد تكون عمياء ، ولكن بغريزة حية توفق الحياة الاجتماعية بوسائل الحياة ، وهى تنشأ من التقاليد ، وهذه تستطيع بل ينبغى أن تتطور وأن تتحور ، ولكن لا يمكن حذفها ولا قلبها دفعة واحدة كما أنه لا يمكن تبديل مناخ ولا صفة أرض ولا أخلاق ذرية ما . وإنما يجب أن نفهم هذه التقاليد عند ما نرغب أن نفهم حياة شعب ما

وهذه خلاصة آراء المؤرخين فى ذلك العصر ، ولا سيما (تين) الذى حاول أن يطبق هذه الآراء فى كتابه (أصل فرنسا الحديثة) ففرنسا الحديثة ينبغى أن تكون وليدة فرنسا الغابرة ، وهذه كانت بائسة ذليلة ، ولكن يجب إيجاد علاج لها ، وهذا العلاج إنما يستمد من تقاليدها وعاداتها لا من أفكار مجردة . إن فلاسفة القرن الثامن عشر قد أوجدوا (الخير لذاته) لكل الناس فى أى قطر من الأقطار فلم يُفض قولهم هذا إلا إلى نظم خيالية ، فالمذاهب المجردة لم تكن إلا كلمات عاجزة ، إنها لم تولد الثورة ولكنها ولدت مملكة الذعر والرعب الأعمى ، وفلاسفة القرن الثامن عشر وزملاؤهم الثائرون لم يحسنوا معرفة نظام الحياة الاجتماعية وهو المثابرة من أجل البقاء !

هنالك فلاسفة قد أخطأوا فى تفكيرهم فى المجتمعات على نسق تفكيرهم فى العلوم المنطقية ، إذ فى الحقيقة ليس هنالك أفراد للعالم النفسانى والروائى ، ولا يغنى فيهم أن نتكلم عن أثر البيئة فيهم ، لأنهم ليسوا إلا جزءاً من البيئة ، أو نقطة من مذهب هو جزء من القوات المؤثرة لا يمكن حله إلا بحل المذهب كله

يعلن (جابريال تارد) فى كتابه (شرائع التقليد) و (الرأى والجماعات) بأن منطق الجماعات لا يلتقى مع منطق الفلاسفة . فالناس لا يفكرون ولكنهم يقلدون ؛ وهم لا يتحققون ولكن يتبع بعضهم بعضاً ؛ وهم يتشابهون

فالعالم (البيولوجى) لا يدرس حركة القلب كما يدرس الرياضى حركة كتلة ثابتة على حالة واحدة . كذلك الحوادث الاجتماعية لها خصائص خاصة ، وطبيعتها تختلف بالعمق عن حوادث الحياة الفردية المدروسة عند علماء النفس إذ ليست كلها مجموعة وحدات ، فالمجتمع باستطاعته أن يحال الفرد ، ولكن الفرد لا يحال المجتمع

(يتبع) خليل هنداوى

معجزة أبى العلاء

هى كتاب

الفصول والغايات

طرفة من روائع الأدب العربى فى طريقته ، وفى أسلوبه ، وفى معانيه . وهو الذى قيل فيه إن المعرى عارض به القرآن . ظل طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة فى القاهرة وصدر منذ أسبوع

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زناتى

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد

ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة

ويباع فى جميع المكاتب الشهيرة